

مصادر استيحاء صورة الدنيا الأنثى في شعر إبراهيم الأسود

Sources of Depicting the Life as Feminine in Ibrahim Al-Aswad's Poetry

أ.د. فضل الله فضل أحد

أستاذ البلاغة والنقد ، عميد كلية اللغة العربية، بالجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد

براء خالد هلال

باحث في النقد الأدبي الحديث، كلية اللغة العربية بالجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد

Abstract

Ibrahim al-Aswad was influenced by the Arabic poets who found in the beauty of the world an allure akin to that of a beautiful woman. The poet likened the life to a women beauty, its events brimming with surprises, much like a pregnant woman whose eventual delivery remains unknown. He compared people's rush and eagerness for the world to a baby's rush to its mother's breast. He also saw in the embellishment and adornment of the world a vivid example of a beloved or a betrothed adorning herself for her suitor. As the poet aged, he viewed the world through the eyes of an old, worn-out woman, coloring her hair to hide her flaws. He also likened it to the deceitful, treacherous wife who promises and wishes for lovers but fails to keep her word. He found no parallel to the cunning of the world except in the cunning and deceit of women. This paper concludes that the modern poet followed in the footsteps of previous poets in this vein. He found a fitting parallel between the fluctuations in a woman's moods and the vicissitudes of the world's conditions. The world and women continue to be a source of inspiration for poets since the beginning of poetry, and this will remain the case indefinitely. This paper follows descriptive analytical method.

Keywords: Modern Arabic Poetry, Ibrahim Alaswad, Life, Woman

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، وآل البيت الطاهرين

وصحابتهم أجمعين، أما بعد:

فإن الدنيا والمرأة الحسناء، منبع الإلهام والوحي الشعري منذ الأزل، وقد وجد الشاعر

العربي قواسم كثيرة بين هذين الملهمين، لذا دأب على تشبيه الدنيا بالأنثى، بشق طقوسها وأحوالها

ومراحلها العمرية، فهي فتاة تتزين للخاطبين، تفتنهم بما تظهر، وتغدر بهم بما تخفي، وهي عجوز

شمطاء تداري آثار ضعفها بما يسحر أعين الناظرين من الزيف، وهي زوجة فروك تفتح ذراعيها لكل طالب. كما صور الشعراء الدنيا أمراً رؤوماً، وشبهوا الدهر والأيام بالخبلى التي ليس يدرى ما تلد. بل إن الشعراء تجاوزوا ذلك فشبهوا الدنيا بغير أنثى البشر، فهي طوراً ناقة حلوباً، وطوراً مهرة جامحة، أما الشاعر السوري إبراهيم عبد الحميد الأسود¹، فهو يملك تجربة حياتية ثرية وصراعاً مبرراً مع الأيام، تحلى في شعره بكافة جوانبه، إذ خبر الدنيا من أعلى سطحها وأدنى قاعها، ثم خبر الصنعة الشعرية، وغذاها بما حفظ من الأشعار والنصوص الأصيلة والمتون في مرحلة مبكرة، وعاضدها بكثرة القراءة ومدامتها، والثقافة والاطلاع الواسع، وأهم من ذلك كله "المعانة" فمن يمعن النظر في نتاج الشعراء المشهورين، يكتشف أن المعانة مصدر الإبداع، فهي بقدر ما تتعب قلب الأديب المرهف الحس، تنبت الألم العبقري الذي يخلد اسم الأديب على صفحات التاريخ، وتنفخ فيه روحاً من الفن، لاسيما إن كان شاعراً ثائر النزعة، يبحث عن تفرغ للمشاعر المكبوتة، وتبديد للألم الذي يكاد يتمييز في مرجل القلب بما تغذى من الصدد والحرمان. لذا اتخذ الشاعر الأسود الحياة الدنيا نداً له، فهو ينازلها ويهاجها في كل ميدان.. ولم يترك صورة إلا وألصقها بالزمان والدهر وأهله، فهو قد خبزه وعجنه، وقطع ضروبه وعروضه، فما موسيقى يألّفها ولا نغمه يحبها ولا تصاريف توافق أشرعته؛ فيقول في شاخصه له {من الكامل}(2):

أنا شاعرٌ قرأ الزمان مصرّعاً ومدوراً مُدْ شَبَّ حَتَّى شَابَا
لكنّه لم يستقم في ذوقه لحناً ولا وزنّاً ولا إعراباً

لذلك تمنى في "شاخصه" قصيدة أخرى له لو كان معدوم الحواس، إذ ما فائدة الحواس طالما أصبحت بلاء على المرء لا يرى ولا يسمع ولا يحس بها إلا ما يسوءه {من المجتث}(3):

لما بلوث حياتي لَوْناً، و رِيْحاً، و طَعْمَا
وددْتُ لو كنتُ فيها أصمّ أبكم أعمى!

فقدان الشغف، وصعوبة الوصول، والحيلولة بين الشاعر وبين ما يشتهي ويطمح؛ أدت به لأن يقلب للدهر ظهر المجنّ، لتدور بينهما رحى حرب ضروس، ومعرفة ثار لا تخمد، يستعدي كل منهما على على خصمه ليبادئه قبل أن يتعشى به. ويعتمد الشاعر في إحدى شواخصه عن غدر صروف الزمان على تشخيص هذا الزمان إمعاناً في السخرية والتقابل بين الندين، واصفاً هذه الحرب، فيقول {من الوافر}(4):

أَطَرُّدُ مِنْ بَنِيهِ بِكَلِّ فَجَّ كَأَنِّي قَدْ قَتَلْتُ أَبَا زَمَانِي
وَمَا أَنْفَكُ تُثْقِلُنِي دِيُونِي كَأَنِّي مِنْ بَنِي (عَبْدِ الْمَدَانِ)
وَأَخْطُو بِاتِّجَاهِ السَّعْدِ يَوْمًا وَاعْوَامًا أَرَاوُحُ فِي مَكَانِي!

هذا اليأس وهذه المراوحة، دفعت الشاعر لأن يظهر النقمة على الدنيا بشق صورها، فشبهها بكل ما يكره ويبغض، فهو إذ يتمسك بالشعر القديم ورونقه وأساليبه، يبغض الحداثة والشعر الحديث، بل يرى فيه شتيمة مقدعة شبه الدهر بما {من البسيط} (5):

حيث أننا تشبه الشعر الحديث فلا زُوِيَ بَيْتٌ وَلَا صَدْرًا وَلَا عَجْزًا
لم نستطع فكَّ رمزٍ من طلاسمة أو من طلاسمة والعمر قد وُجْزًا

لكنني في هذا البحث سأضرب الذكر صفحاً عن هذه التشبيهات الأخرى و أتقصي تشبيه الدنيا بالأنثى فحسب في شعر إبراهيم الأسود، ومصادر استنباطها من تراث العرب وأدبهم، في دراسة موضوعية تتبع المنهج التحليلي.

أولاً: تشبيه الدنيا بالأنثى في الشعر العربي

الشعر العربي منذ العصور الجاهلية الأولى إلى زماننا، يشكل حلقة واحدة، تستوحي منابع الإلهام وتستنشق أنفاس البيئة نفسها، فراها تقتبس من بعضها، حتى إن صورها تتوحد وتشبهاتها تعمم، وإن اختلفت الألفاظ، وتبدلت الألفاظ. لم تكن الدنيا في النصوص الدينية أنثى رغم أنها حازت وإبلاً من التشبيهات، فقد شبهها الله تعالى في القرآن الكريم في سورة يونس وسورة الكهف، بالمطر الذي اختلط به نبات الأرض، فقال عز من قائل سبحانه: {وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا} (6)، وشبهها النبي صلى الله عليه وسلم بظل شجرة، في الحديث الذي رواه عبد الله بن مسعود حيث قال: "نَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى خَصِيرٍ، فَقَامَ وَقَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَوْ اتَّخَذْنَا لَكَ وِطَاءً، فَقَالَ: مَا لِي وَلِلدُّنْيَا؟ مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا كَرَكَابٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا" (7). ولكن الشعر العربي اتخذ منحى آخر في وصف الدنيا وغدورها وأحوالها، حيث أن المرأة هي المحرك الأول للشاعرية في نفس الشاعر الرجل، فتجد لجلاً

التشبيهات التي رُميت بها الدنيا في شعر الرجل عبر حقب الشعر العربي تتمحور حول الأثني، بشقّ مراحلها العمرية وأحوالها الفيزيائية.

التشبيه نوع من المشاكلة الحسية أو المعنوية بين المشبّه والمشبّه به، فهو أبلغ أشكال البيان تقريباً للصورة و تجلية للفهم، وقد عرّفه صاحب الإيضاح بأنه "مشاركة أمر لآخر في معنى مالم يكن على وجه الاستعارة التحقيقية ولا الاستعارة بالكناية ولا التجريد" (8)، وقال صاحب جواهر البلاغة أن "التشبيه أول طريقة تدل عليه الطبيعة لبيان المعنى، وهو في اللغة التمثيل" (9).

ولما أن اطرّدت هذه الصورة في شعر العرب، نجد أبا الطيب المتنبي مختاراً، في سبب هذا التأنيث للدنيا في حديث الناس، رغم أنها يقر أن الدنيا تنزيا بشيم الغانيات وخصالهن، حيث قال في رثاء أخت سيف الدولة {من الخفيف} (10):

أبدأً تسترّد ما تهب الدنيا فيا ليت جودها كان بُحلاً
فكفّت فرحة تورث الغم وخلّ يغادر الوجد خلّاً
وهي معشوقة على العذر لا تحف طُ عهداً ولا تتمّ وصلاً
كلّ دمع يسيل منها عليها وبفكّ اليدين عنها تخلّى
شيم الغانيات فيها فلا أد ري لذا أنث اسمها الناس أم لا

وبالغ الشعراء القدامى والمعاصرون في التفنن بالصور والتشبيهات وتجديدها، وخاصة في هجاء الدنيا، لأن التشبيه رأس حربة الهجاء والسخرية، يخلق مفارقة ضاحكة، أو صورة جميلة. والتشبيه أقوى سلاح في المبالغة فهو إما أن يظهر الحال بصورة أنكى وأمر مما هي عليه بكثير، أو يصورها برونق لامع، فهذا هو العدويّ يقول في وصفه الدنيا {من البسيط}:

حُتوفها رصدّ، وعيشها نكدٌ وشربها رنق، وملكها دُول
ففي هذه التشبيهات البليغة يشبه الشاعر الختوف بعين القناص، ويشبه الدنيا بالشراب المخلوط بالتراب، فهو يحاول بتشبيهاته أن يستنطق الجماد والعلائق الخفية الموجودة بين المشبه والمشبه به، لإيقاظ العقول النائمة وإحياء الضمائر الميتة وتوعية الأذهان الغافلة، فالتشبيه "يوسع آفاق التعبير أمام المتكلم فيستطيع عن طريق الصورة أن ينقل ما رسم في ذهنه من معانٍ إلى السامع أو القارئ، وذلك لأنه يجمع بين الإيجاز وحسن البيان والمبالغة في تأكيد المعاني وتقرّرها" (11). فهذا هو عليّ بن الجهم حين يصف الدنيا يحاول جهده في أن يخرج عن مألوف الصور التي أتى بها الشعراء، فيشتق للدنيا من حال المرأة صورة الحسناء الفاتنة فيقول {من البسيط} (12):

لَمْ يَضْحَكِ الْوَرْدُ إِلَّا حِينَ أَعْجَبَهُ حُسْنُ الرِّيشِ وَصَوْتُ الطَّائِرِ الْغَرْدِ
 بدا فأبدت له الدنيا محاسنها وراحت الرِّيحُ في أثوابها الجُدِ
 وبذلكته يدُ المشتاق تسنّده إلى الترائب والأحشاء والكبدِ
 بين النديمين والخلّين مضجعه وسيرة من يد موصولة بيدِ

فالشاعر في استعارته من الأثني محاسنها وأثوابها الجديدة، لوصف أحوال الدنيا، يريد أن يثبت أنه غير محدود الأفق في تشبيهاته البليغة، فجاء في بعض معانيه مبتكراً، وفي قليل منها مقلد، حيث شبه الدنيا تشبيهاً مألوفاً بالحسنة التي تبدي محاسنها، وتسكّر عاشقها بالخمير الذي يبلل أثوابها الزاهية، وتابع في تحقيق الصورة بأن جعل هذا المفتون يتقلب بين هذه الأيادي الناعمة التي لا تشبه إلا نعومة جلود الأفاعي.

واختصر امرؤ القيس دنياه بالفتيات الحسان حتى صرن كل دنياه، فقال {من الطويل} (13):

تَمَتَّعَ مِنَ الدُّنْيَا فَإِنَّكَ فَإِنِّي مِنَ النَّسْوَاتِ وَالنِّسَاءِ الْحِسَانِ
 مِنَ الْبَيْضِ كَالْأَرَامِ وَالْأَدَمِ كَالْدَمِ خَوَاصِنِهَا وَالْمَبِيرِقَاتِ الرَّوَانِ

امرؤ القيس على عادته، يأتي بصور ثابتة متلاحقة، تبهر السامع بتلاحقها المحكم النسيج رغم أنها ليست متحركة المشهد. أما الشاعر إبراهيم الأسود فنجد أنه أخذ من ذلك كله، فشبّه الدنيا بكافة أحوال المرأة ومراحلها العمرية وفيما يلي نجمال أهم تلك التشبيهات:

1. تشبيه الدنيا بالحسنة اللعوب:

لا تدوم الدنيا لأحد، هي طفلة في عين الطفل، بكر في عين البكر، كهلة في عين الكهل، لكنها هي هي منذ خلق آدم، ثابتة في ذاتها، متغيرة حين تنسب إلى العين المفردة.. هي سريعة الفناء، عاجلة الانقضاء، وعدها بالبقاء خادع، والخلف في طبعها دين، تغر الناظر فيحسبها ساكنة مستقرة لكنها تمر مر السحاب، تتبدل تبدل الأيام. هذه الصفات وجد فيها الشاعر العربي نظيراً للمرأة ذات الطبع العاطفي العاصف المتقلب، فلما جاء حديث الدنيا في مجلس الحسن البصري رحمه الله أنشد قائلاً {من الكامل} (14):

أحلام نوم أو كظل زائل إنَّ اللَّيْبَ بِمَثَلِهَا لَا يُحْدَعُ

يستخدم الشاعر الأسود الدنيا رمزاً للعادات والأعراف والتقاليد والتصورات البالية والتناقضات التي تقوم عليها حياة الناس، فالدنيا للضعيف المعدم فرس حرون، وللغني فاجرة مبتذلة، فيقول {من مجزوء الكامل} (15):

ولقد عجبْتُ لما أرى من هذه الدنيا الحرُّون

هِيَ مِنْ قُرُونٍ تَسْتَجِي - بٌ فَقَطْ لِأَصْحَابِ الْقُرُونِ

تقيس الدنيا يد طالبها بما في جيبه، فلا تستجيب ولا تخضع ولا تُقدم ولا تترك لصاحب الذمة، جوح تُردي خيالها إن عاندها مبادئه وقيمه وأفكاره الأصلية، بينما تتلوى تلوي بنات الليل تحت الذئاب معدومي الضمير والغيرة، ممن يسلكون كل سبيل - طاب أو خُبث - إلى السلطة والمال والجاه، ويتخذون في الحياة طرقاً قصيرة للوصول ويرضون الديانة على التربع في الصدور، فأصحاب المبادئ في نصب، وأصحاب المساوئ على سُرر من ذهب.. ويؤكد شاعرنا أبو خليل⁽¹⁶⁾ هذا الوصف في أبيات أخرى فيقول {من البسيط}⁽¹⁷⁾:

إِنَّ اللَّيَالِيَّ وَإِنْ مَنَيْنِي حَسَنًا لَكَ الْحَسَانِ كَذُوبَاتُ الْمَوَاعِيدِ
يَجْرَحْنَ كَيْمَا يُخَضِّبْنَ الْبَنَانَ دَمًا وَلَا يُبَاشِرْنَ مَجْرُوحًا بِتَضْمِيدِ

هذا التشبيه مفصل ومباشر، وضح فيه القرينة بين المشبه والمشبه به، حيث أن هذه الدنيا كالحلة الحسناء التي لا تصدق مواعيدها، وضرب لذلك وجهاً من وجوه الغش والغطسة حيث يتخذون من الجراح التي أحدثتها في القلوب التي اصطدتها خضاباً يتجملن به، ويتركن الجرح فاغراً ينزف، فرقتهن كاذبة، وتحمّلهن زيف خادع. هؤلاء الصواحب الخداعات من بنات الليالي، هاجس يكوي فؤاد الشاعر فلا يفتأ يعيد الصورة بأشكال شتى، حتى إنه منح كنية لهذه الدنيا على كنية جارة سمجة لها في ذاكرته حكاية¹⁸، اعتمد لها صورة من المرأة الغدارة، فقال {من الخفيف}⁽¹⁹⁾:

وَأَنَا وَالْحَيَاءُ فِرْكٌ وَتَرْكٌ وَهِيَ لِي مِنْ أَعْيِ الْخُصُومِ اللَّدِّ
تَدَّعِي بَاطِلًا وَتَحْكُمُ ظُلْمًا وَتَرَى نَصْرِي وَتَشْهَدُ ضِدِّي
أَوْجَدْتَنِي لَكِنِّهَا أَوْجَدْتَنِي وَلِهَذَا سَمَّيْتُهَا (أُمُّ وَجْدِي)

الشاعر الحاذق المتمكن هو ذاك الذي يبتعد عن الأساليب التقليدية، فلم يكتف الشاعر بأنسنة الحياة بأن جعلها فارك، وترك بعلمها، وتصبح أعدى أعدائه، معتمداً على المقابلة التي أحدث منها مفارقة التنافر البسيط، بين (تري نصرتي) و (تشهد ضدي)، وبل حقق تلك الصورة بأن اتخذ للحياة كنية كسائر الناس، فسماها (أم وجدتي)، معتمداً على الجنس التام الذي خلقه بين كلمة (أوجدتني) الأولى من (الوجد) وهو اليسار والسعة و(أوجدتني) الثانية من (الوجد) والوجدان⁽²⁰⁾.

وإذا اتفقنا أن تشبيه الدنيا بالأثني ليس من ابتكار بنات أفكار الشاعر لكنه أبدع في تشكيله وغاص في التفاصيل فتميّز في تشبيهاته، فلا يدرك كنه الدنيا إلا فيلسوف متبصر يعرف ما تحبب الأقدعة، ويقرأ خلف الوجوه، أما تلك الصورة العادية فنجدتها حتى عند الجاحظ في (المحاسن والأضداد) حيث ينقل لنا وصف الشاعر لتقلبات الأيام مشبها إياها بالحسناء المزيفة {من الوافر}⁽²¹⁾:

أيا دُنْيَا حَسَرْتُ لَنَا قِنَاعًا وَكَانَ جَمَالُ وَجْهِكَ فِي النَّقَابِ
 ديارُ طَالَمَا حَجَبْتَ وَعَزَّتْ فَأَصْبَحَ إِذْهَا سَهْلَ الْحِجَابِ
 وَقَدْ كَانَتْ لَنَا الْأَيَّامُ ذَلَّتْ فَقَدْ قُورِنَتْ بِأَيَّامِ صِعَابِ
 كَأَنَّ الْعَيْشَ فِيهَا كَانَ ظَلًّا يُقَلِّبُهُ الزَّمَانُ إِلَى ذَهَابِ

1. فالشاعر هنا يخاطب الدنيا التي شبهها بالحسنة المنتقبة لتخفي قبح ما تحت القناع، صورة حقيقية تعبر عن غدر الزمان، وضالة نظر الإنسان الذي لا يفهم ماهيات الأمور. لكن هذه الغادة اللعوب المختبئة خلف قناعها نجدها في الشعر الفارسي المترجم شعراً أيضاً، عند (اسبهيد مرزبان)، حيث قامت الدنيا خطيبة تحذر الناس من مكرها وحيلها، حيث يقول {من الوافر} (22):

هِيَ الدُّنْيَا تَقُولُ بَمَلٍّ فِيهَا حَذَارِ حَذَارِ مِنْ بَطْشِي وَفَتْكِي
 فَلَا يَغُرُّكُمْ مَنِّي ابْتِسَامٌ فَقُولِي مَضْحَكٌ وَالْفِعْلُ مُبْكِي

فزاد على وصف غدرها وتقلبها، وصفاً آخر يصمها بالبجاجة، فالدنيا لا تخفي طبيعتها عن أعين الخلق ولا تخجل من هذا التلون؛ لأنها تدرك أن أبناءها مفتونين بزخرفها وحلاوتها، ولن يكفوا من التهافت عليها، فهل يتفرق الأبناء عن أمهم حتى ولو كانت قميئة متلونة، وهذا ما وصف الدنيا به أشجع السلمي، حيث قال {من الطويل} (23):

أَرَى الدَّهْرَ يَعْطِي مَرَّةً وَيَسْوَفُ وَيُتْلِفُ أَمْوَالاً مِرَاراً وَيُخْلِفُ
 نَحْنُ إِلَى الدُّنْيَا وَنَأْمَنُ غَشَّهَا وَفِيهَا لَنَا يَوْمٌ مِنَ الشَّرِّ مُتْلِفُ
 إِذَا اكْتَحَلْتُ عَيْنُ امْرِئٍ بِجَمَالِهَا أَضَاءَ لَهَا مِنْهُ جَمَالٌ مَزْخَرُ
 عَلَى أَنَّهَا مَشْغُوفَةٌ وَهِيَ فَارُكٌ لِعَشَّاقِهَا ظَلَامَةٌ لَيْسَ تَنْصِفُ

2. فالدنيا في شعر أشجع غشاشة، رغم أنها جميلة متزينة تملأ العين. يحشو السلمي أبياته بالمفارقات التي ترسم تقلب حال الدنيا، حيث يصورها في البيت الأخير بالزوجة المشغوفة عشقاً بزوجها، لكنها في نفس الوقت تخونه مع العشاق الآخرين، وهي لا تعرف إلى الإنصاف بين عشاقها سبيلاً. فهذه الدنيا البراقة، تمد طرف ذراعها لعشاقها فيعقلون بأصابعها، وهي تبالي في التمثيل عليهم وإثارة شفقتهم مرة، وإثارة غرائزهم تارة أخرى، وفي ذلك يقول كُتَيْبٌ عَزَّةَ {من الطويل} (24):

وقد لبست لبسَ الهلوك ثيابها تراءى لك الدنيا بكفٍّ ومعصم
وتومضُ أحياناً بعينٍ مريضةٍ وتبسُّمُ عن مثلِ الجمانِ المنظَّمِ
فأعرضتُ عنها مشمئزاً كآتماً سقتك مدوفاً من سمامٍ وعلقم
وقد كنتُ من أجبالها في ممْنَعٍ ومن بحرِها في مزبدِ الموجِ مفعم

3. ولكن الحيلة والذكاء وحده لا يكفي إن لم يكن وراءه يد قادرة تدفع وتبطش، لذا لجأ الشاعر الأسود للخروج عن المألوف بقلب هذا التشبيه النمطي، بأن جعل الزمان هو الضحية وجعل من نفسه العدو المتربص الذي يفتك بالدنيا، لكنه عدم الأدوات، إذا يقول في أبيات طريفة

4. ذكية الرمز، متخذاً من حرب البسوس مصدراً لتشبيهاته البليغة {من البسيط} (25) :

حُبٌّ على دَخَلٍ والنَّاسُ بالنَّاسِ وصحبةٌ مثلَ حَوَاءٍ ونَّحَاسِ
هذا الزَّمانُ كليبٌ والبسوسُ أنا حُلُمي سرابٌ وأنى لي بجسَّاسِ

فالشاعر هنا هو البسوس الذي تكيد للزمان، الملك الظالم، الذي رمز له بكليب، ولكن هذا الشاعر الذي بات بسوساً عجز عن أن يأتي بجساس يوقف غرور الزمان عند حده، فضاعت أحلام الشاعر وتبخرت كسراب ببيعة، ومن البديع أن (السراب) جاء موافقاً لاسم ناقة البسوس، ويلخص هذه الصورة كلها في بيت واحد جمع فيه كل تلك الصور بإسقاط جميل على واقعه وخيبته في هذه الدنيا التي انعدم فيها النصير والركن الذي يأوي إليه.

2. تشبيه الدنيا بالحبلى:

يضرِبُ الشعراء للزمان من كل مثل، فالدنيا بأعرافها وتقاليدها وقوانينها البائسة لا تزال تفاجئ الشاعر مرهف الحس بما لم يكن يخطر له على بال، تماماً كالبسوس المذكورة آنفاً والتي لا تكف عن حياكة المكائد، والشاعر الذي يرى لسانه سلاحه الوحيد لا يجد غير التأسى على حاله، إذا عدم أمام أهوال الدنيا الحيلة والذكاء. رحم الدنيا حبلى بالأحداث المدهشة، والأيام المثيرة، وهذا المشاكلة الحسية بين الدنيا والحبلى ألهمت مخيلة الشعراء، فجعل منها إبراهيم الأسود حبلى حقيقية كعاداته في تحقيق الصورة، حيث لا يكتفي باللفظ والإشارة، بل يذهب إلى أقصى مدى لإقناع المتلقي بوجاهة هذا التشبيه، إذ يقول في قصيدة له {من البسيط} (26):

أيامٌ دهري أيامى، طال ما تعبثُ من الوحامِ ولم تُرزقْ بمولود
وربما انتفخت بالوهم وانفرجت في طلقها عن كناياتٍ مناكيد
إن العُقارَ⁽²⁷⁾ التي في الكرم نشأها في الكأس نشوؤها لا في العناقيد

بدأ الشاعر تجسيمه للدنيا الأنثى بأن شبهها بالأم التي فقدت أبنائها، وقصد الشاعر بأبناء حياته ما يسعى إلى تحقيقه من المجد والمكسب.. هذه الإنجازات التي تموت قبل أن ترى النور، لذا ظلت حياته كالحبلى التي ليس لها من عنائها إلا آلام الحمل والمخاض، فحملها انتفاخ وهمي، ووضعها كناية لا حقيقة. ويبدو أن صورة الدنيا الحبلى قد أغرت الشاعر الأسود فصورها على ذلك في أكثر من موضع، ففي الشاخصة التالية يصنع الشاعر من هذا التشبيه مفارقة التنافر البسيط، حيث جاور التضاد والتناقض في تشبيه الزمان، فيقول {من الوافر} (28):

زَمَانِي مَشَبَّةٌ رَجُلًا عَقِيمًا وَزَوْجَهُ الْقَضَا امْرَأَةً وَلَوْ دَا
وَكَاَنَا أَبْيَضَيْنَ دَوْنِي جَمَالٍ فَجَاءَ النِّسْلُ حُمْرَانًا وَسُودَا
والتنافر بسيط هنا لأن الشاعر يكتفي بجمع المتناقضات ويصُفُّها إلى جوار بعضها ليخلق هذا التنافر في أذن السامع، دون أن يضطر ليرر له أو يضحكه، فالنشاز ظاهر من أول وهلة في المطابقة بين (الرجل العقيم) و (المرأة الولود) و بين أنهما (كانا أبيضين ذوي جمال) وبين نسلهم من الحمر والسود. ولو تقصينا آثار هذا التشبيه في الشعر العربي، لوجدنا أنه تشبيه مطروق لكن بأشكال مختلفة لم تقارب الصورة التمثيلية التي استطاع أبو خليل ابتداعها.. فهذا هو ابن المعتز - خليفة اليوم والليلة- أحد ضحايا الدنيا، الذي عاش لذة الملك وذلة التشرد، ودقت عنقه في سبيل ملكه، يرى أن سعادة الدنيا ماهي إلا دليل القبر والخراب، فالدنيا حبلى وما في رحمها إلا أهوال القيامة، إذ يقول {من السريع} (29):

يَا ذَا الْغَيِّ وَالسَّطْوَةِ الْقَادِرَةِ وَالِدَوْلَةِ النَّاهِيَةِ الْأَمْرِ
انْتَظِرِ الدُّنْيَا فَقَدْ أَقْرَبَتْ وَعَنْ قَلِيلٍ تَلِدُ الْآخِرَةَ

أما حين اختبئت الدنيا في رحم الليالي الألف فقد كانت تلد كل ليلة عجيبة من العجائب على لسان شهرزاد، التي روت لأميرها هذه الأبيات {من الخفيف} (30):

كُنْ حَلِيمًا إِذَا بُلِيتَ بَغِيظٍ وَصَبُورًا إِذَا أَتَتْكَ مُصِيبَةٌ
فَالليالي من الزمان حبالٍ مُثْقَلَاتٍ يَلِدْنَ كُلَّ عَجِيبَةٍ

الدنيا في نظر الشعراء رمز العادات والأعراف البالية، والقوانين الجائرة، والتناقضات التي تقوم عليها حياة الناس، وقد لجأ اليوسي إذا هذا التوصيف في كتابه (المحاضرات في اللغة والأدب) حيث يقول {من مجزوء الوافر} (31):

أراني حيثما أخطُ أجد ما لم أجد قطُ
 وإن الدهر حبلَى كُلِّ ما حينٍ له سقطُ
 لقد سايرتُهُ طفلاً إلى أن مسَّني وخطُ
 فلم ينفكَّ يشتدُّ على المرء ويشتتُ
 ولم يألُ إذا استعلى يومَ الهُون أو يسطو
 له في كلِّ إذن من بني أبنائه قرطُ

الشاعر في هذه الأبيات يشبه الحياة بالحبلَى كثيرة الطرح، لفساد ما تنتجه الدنيا من الزخارف، والذي يجاريه كمن يتبع سراياً بقيعة، وهو بذلك يعطي بعداً جديداً لهذا التشبيه، الذي أكثر منه الشعراء، فكان ملهماً للشاعر الأسود فيما ذهب إليه.

3. تشبيه الدنيا بالأم المرضع:

لم يكتف الشاعر العربي بتشبيه الدنيا بالحلبى، بل تصور فعلاً أنها ولدت وباتت أمماً مرضعاً تغذي أبنائها، وتنشئهم على عاداتها وتمازجهم بطوغم من شهواتها، لكن الشاعر الأسود شاعر متمرد بطبعه، أنف من أن يعترف بهذه القرابة، فنفسه السامية أعلى من مآرب الدنيا الوضيعة فقال في قصيدة (المطرش المعمي) {من الطويل} (32):

كبرتُ على الدُّنيا فما أنا بابنها ولا مستعدُّ أن أقولَ لها أُمِّي
 لقد أشرقَتْ حلقي ودقَّتْ أضالعي وما أجمَلْتُ لا في رضاعي ولا ضَمِّي
 أكانَ أتاها الوحيُّ لُقيَ قِمَاطُهُ وأبغيه تابوتاً (فألقى في اليمِّ)
 وكيف وليسَتْ أُمُّ موسى ولا أنا وهبْتُ كفرخ البطِّ موهبةَ العُومِ
 وها هيَ لَمَّا تَأَلَّ شربُ من دمي وتأكلُ من لحمي وتنجثُ من عظمي
 لأستدرِكنَ ما فاتني من عقوقها بما في لغاتِ الجرِّ والإنس من دَمِّ

نقمة الشاعر على الدنيا أحدثت ثورة حتى على هذه العلاقة النبيلة التي تعد إحدى أمتن الأواصر في الدنيا، وهي علاقة الأمومة، فلو كانت الدنيا أمه حقاً فهو متمرد على هذه الأمومة، معلناً نيته الذهاب إلى أقصى درجات عقوق الأمهات للاقتصاص منها فقد فعلت مع ابنها فعل أم موسى، لكنها دونما ضير يجبرها على ذلك، ودون وحي أتاها، فتركت ابنها نهباً للفقر والضياع، يصارع تلاطم الأقدار وتصاريقها دون أن تسلحه بما يتسلح به المرء في معركة الحياة. استحققت هذه الأم الظالمة برأي الشاعر، عداوته المطلقة الأبدية لكل ما تقدّم ولأنها لم تتحنن على الشاعر حتى بضمة المهد ولا رضاع النهد،

فأحدث الشاعر هذه المفارقة في التشبيه. وهذه المفارقة لجأ لها القائل الكلابي حيث جعل بني الدنيا هم الذين يرضعون الدنيا، فقال {من الطويل} (33):

وذموا لنا الدنْيَا وهم يرضعُونَهَا أَفَؤَيْقَ حَتَّى مَا يَدْرُ لَهَا ثَعْلُ
يصف الكلابي في هذا البيت أن الدنيا ماهي إلا ثمار أعمالنا، فنحن نحصد منها ما كنا زرعنا فيها، لذا يذم الفصام القائم على هجاء والقدح فيها ثم التهافت على خيراتها، ولا يمكن أن تليق هذه الصورة بالمرأة بل بالناقصة، حيث شبه الفئات التي يتقاتلون عليه بالثعل وهي حلمة الثدي التي لا تدر إلا لماماً. ويلجأ الشاعر إلى هذه الصورة ليصور حظه التعس ونصيبه المنتكس وتآمر الأيام ضده، وهو يحاول أن يعدل القسطاس لصالحه، فلا يستقيم، فيقول على لسان أدد بن مالك في وصيته {من البسيط} (34):

إِنَّ الَّذِي عَرَفَ الدُّنْيَا وَجَرَّهَا	مَنْ قَبْلَ أَنْ تَعْرِفُوهَا - وَيَحْكُم - أَدُّ
أَفْنَى لِيَالِيهِ اللَّاتِي سَلَفْنَ وَلَمْ	تُسْعِفْهُ مِنْ بَعْدِهَا أَيَّامُهُ الْجُدُّ
بَنِيَّ إِيَّيْ حَلَبْتُ الدَّهْرَ أَشْطَرَهُ	فَمَا عَدَائِي مِنْهُ الشَّرِيَّ وَالشَّهْدُ
وَقَدْ صَحِبْتُ رَجَالاً كُنْتُ أَمْلَهُمْ	يُخَلِّدُوا لِي فَمَا عَاشُوا وَمَا خَلَدُوا
بَنِيَّ إِنْ مِثْلَ أَمْسِ الْيَوْمِ سَالَمَنِي	فَلَيْسَ يُؤْمِنُنِي مِمَّا أَخَافُ غَدُ
بَنِيَّ لَا تَبْدُؤُوا قَوْمًا بِمَظْلَمَةٍ	وَفِي عَدَاوَةٍ مِنْ عَادَاكُمْ اجْتَهَدُوا
لَا تَحْسُدُوا النَّاسَ مَا أُوتُوا وَمَا رُزِقُوا	مِنَ الثَّرَاءِ فَحَظُّ الْحَاسِدِ الْحَسَدُ

إن أطايب الدنيا تبدو هينة سهلة المنال، تجتذب الخائض بانغماس طائناً أن حلاوة منطقتها كحلاوة الخوض فيها، فإذا جرب (حَلَبَ أَشْطَرُ الدَّهْرِ) عرف زيف ظنه، فالخروج منها مع السلامة شديد، وقد كتب علي رضي الله عنه إلى سلمان الفارسي رضي الله عنه بمثلها فقال: "مثل الدنيا مثل الحية؛ ليئس مسُّها ويقتل سُمُّها، فأعرض عما يعجبك منها لقلة ما يصحبك منها، وضع عنك همومها بما أيقنت من فراقها، وكن أسرَّ ما تكون فيها، أحذر ما تكون لها؛ فإن صاحبها كلما اطمأنَّ منها إلى سرور، أشخصه عنه مكروه، والسلام" (35).

وفي ذلك يقول رجل من طيء {من الكامل} (36):

كَمْ مِنْ أَمِيرٍ قَدْ تَجَبَّرَ بَعْدَ مَا	مَرَّيْتُ (37) لَهُ الدُّنْيَا بِسَيْفِي فَدَرَّتْ
إِذَا زَيْنَتْهُ عَنْ فُؤَادِي بِدِرَّةٍ	دَعَانِي وَلَا أُدْعَى إِذَا مَا أَقَرَّتْ

5. وقد برز التناقض في حال الدنيا، هذه الفتاة اللعوب، في شعر القاسم بن يوسف، حيث يقول {من السريع} (38):

كَمْ خَطَرَ الدَّهْرِ عَلَى مَعْشَرٍ يَجُرُّ ذَيْلَ الشَّرِّ أَوْ يَسْحَبُهُ
مَنْ بَعْدَ مَا أَغْمَرَهُمْ نَعْمَةٌ عَادَ عَلَى عَامِرِهِمْ يَحْرُبُهُ
يَرِيثُ قَوْمًا ثُمَّ يَرِيثُهُمْ وَالْعَاتِبُ السَّاخِطُ لَا يَعْتَبُهُ
نَدِمَ دُنْيَانَا وَقَدْ أَفْصَحَتْ بِمَنْطِقٍ عَنْ نَفْسِهَا تَعْرِبُهُ
مَا تَهَبُّ الدُّنْيَا لِأَبْنَائِهَا مِنْ مَلْبَسٍ فَهِيَ غَدًا تَسْلُبُهُ
وَالْحَمْدُ وَالْأَجْرُ مَعًا خَيْرُ مَا يَدَّخِرُ الْإِنْسَانُ أَوْ يَكْسِبُهُ
وَالزَّاهِدُ الْعَالَمُ مَنْ لَمْ يَكُنْ تَخْدَعُهُ الدُّنْيَا وَلَا تَخْلُبُهُ

فالدنيا في شعر القاسم، تارة يأتي بها مذكورة بوصف الدهر، وتارة مؤنثة، لكنها في الحالين متقلبة، تهب أبناءها ثوب العزّ عشية وضحاها، ثم تسحبه منهم، ولكن الشاعر لا يرى موضوعية ذم الدنيا، لأنها واضحة مع أبنائها ولا تخجل من الإعراب عن مزاجيتها وتقلب أهوائها، فهذا حال الأيام التي يداولها الله بين الناس.

4. تشبيه الدنيا بالمحبوبة:

6. رأى الشعراء طباع الدنيا وعرفوها، لكنهم أحبوها على ما فيها، فهي الفاتنة التي تتلطف في استدراج فريستها، ثم تسحر عقله، حتى تهلكه، فهي فتاة تترين للخاطبين حتى إذا نكحوها أطبقت عليهم وقتلتهم. أما الشاعر الأسود فلم يأنس لهذه المحبوبة ولم يمنحها ولو نصيباً بسيطاً من غزله، بل عاملها معاملة الرجال الأنداد واستل لها سيفه ولبس لأمتته، إذ يقول في قصيدة (ربا جيرون) {من البسيط} (39):

إِنْ كَانَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا الدُّنْيَةُ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّهُ مِمَّا لَا يَرَى الرَّائِي
بِنَفْسِهِ يَتَحَدَانِي الزَّمَانُ وَلَا غُرُو، فَأَبْنَاؤُهُ لَيْسُوا بِأَكْفَائِي
وَمَا التَّقِيَّةُ يَوْمًا فِي مَغَازِلَةٍ بَلْ فِي مَنَازِلَةٍ دَوْمًا وَغُلُوَاءِ
أَعْضُ عِلْبَاءٍ إِمَّا شَدَّ أَذْنِي أَوْ أَشَدَّ أَذْنِيهِ إِمَّا عَضَّ عِلْبَائِي (40)

حربه مع الزمان لاهدنة فيها كحال الحروب، هي منازلة مستمرة لا فسحة فيها للتقرب والتزلف. يلعب الشاعر مع الزمان لعبة عض الأصابع، والتي صورها في النص تصويراً طريفاً بين عاضٍ أذن صاحبه وممسك بخناقه، تضمن نمطاً متكرراً ومستمرّاً من الغضب وسهولة الاستشارة والجدال والرفض تجاه الأهل،

وإن كان الشاعر إبراهيم الأسود في جل شعره ناقماً على الزمان، داعياً إياه للنزال في كل موضع، هازناً منه بكل حال، مشبهاً إياه بكل سوء، فلم يخبْ غضبه ولا لانت نفسه تجاه هذا العدو إلا في مرات قليلة كهذه الدعابة مع فتاة اسمها (حياة)، حيث وجد اسمها فرصة للعبة الجنس التي يتقنها ويدندن عليها في جل قصائده وأشعاره، فانبرى يقول في إحدى شاخصاته {من الطويل} (41) :

(حياة) حياتي، أشتهيها، أحبها وإن قلتُ هذا الجنون بذاته
وقالوا : بما طول، يعيبون قدها وهل يكره الإنسان طول (حياته)!

7. الشاعر في هذه الأبيات ينقلب على ذاته، ويستدرك على موقفه المعهود من الدنيا، فيضع نفسه في حذاء المتلقي، فيتصور أن المستمع سيفغر فاهُ دهشةً إن صرح أبو خليل بأنه يحب حياته، وهو الساخط أبداً، وقد حاول إحداث نوع من التماهي بين الحياة المعنوية وبين حاملة هذا الاسم والتي أوقعت الشاعر بجمالها في هذه المفارقة. كأن الشاعر الأسود في هذه الأبيات يحذو حذو مرة بن محكان السعدي، ذلك الصعلوك الذي عاش في العصر الأموي حين لحق به جند مصعب بن الزبير، حيث لم ينكر أن الدنيا حبيبة إليه، رغم شقائه وتصلعه، ولكنه مستعدٌ للتضحية بها في سبيل قضيته فيقول {من الطويل} (42):
بني أسدٍ إن تقتلوني تُحاربوا تميماً إذا الحربُ العوان اشعلت (43)
ولستُ وإن كانت إليَّ حبيبة بباكٍ على الدّنيا إذا ما تولّت
وهو نفس الخطاب الذي وجّهه عمر بن وازع الحنفي ناصحاً من يلحق الدنيا {من الطويل} (44):
فلا خير في الدّنيا وكانت حبيبة إذا ما شمالاً فارقتها يميئها
وينادي أبو العناهية المتهافتين على الدنيا والمتكالبين على خيراتها، مشبهاً الدنيا بالعروس المخطوبة أيضاً، ومحذراً من سوء المنقلب {من السريع} (45):

يا خاطبَ الدّنيا إلى نفسِها تَنَحَّ عن خطبتها تَسْلِم
إنَّ التي تخطبُ غرّارةً قريبةُ العُرسِ من المأتم

وأخذ هذا المعنى بعض الشعراء من المحدثين فقال واصفاً نفسه بأنه متورط بخطبة الدنيا إلى نفسها، حتى استلبت عقله ودينه {من البسيط} (46):

لولا شماتةُ أعداءِ ذوي حسدٍ وأن أنالَ بنفعي من يُرجيني
لما خطبتُ إلى الدّنيا مطالبها ولا بذلتُ لها عرضي ولا ديني
لكن منافسةُ الأكفاءِ تحملني على أمورٍ أراها سوف تُرديني

وقد خشيتُ بأن أبقى بمنزلةٍ لا دينَ عندي ولا دُنيا تُواتيني

ووجه الشبه بين الدنيا والعروس بيّن، إذ أن كلاهما يتزين للخاطب ويريه أفضل حال يود أن يراه، فإذا اطلع على الحقائق وكُشف القناع عن وجهها تمثلت له قبائحها، فندم على اتباعها، وخجل من ضعف عقله في الاغترار بظاهرها.

وفي مثل ذلك يقول ابن عبد ربه الأندلسي في عبدالرحمن بن محمد أمير المؤمنين {من البسيط} (47):
قد أوضح الله للإسلام منهاجا والناس قد دخلوا في الدين أفواجا
وقد تزينت الدنيا لساكنها كأنما ألست وشياً وديباجاً

5. تشبيه الدنيا بالعجوز

تشبيه الدنيا بالعجوز، قديم غير مستحدث، إنما يختلف وجه الشبه الذي أراده الشاعر من الصورة، وقد روي أن "عيسى عليه السلام كوشف بالدنيا فرآها في صورة عجوز هتّاء" (48) عليها من كل زينة. فقال لها: كم تزوجت؟ قالت: لا أحصيه. قال: أفكلهم مات عنك أم كلهم طلقك؟ قالت: بل كلهم قتل. فقال عيسى عليه السلام: بؤسا لأزواجك الباقين كيف لا يعتبرون بأزواجك الماضين، كيف تهلّكهم واحدا بعد واحد ولا يكونون منك على حذر" (49). وقد روي عن إبراهيم بن المهدي أنه قد ترك الغناء في آخر أيامه، وذلك أنه غنى المعتصم صوتاً بشعر له يقول فيه {من الطويل} (50):

دَهَبْتُ مِنَ الدُّنْيَا وَقَدْ دَهَبَتْ مِنِّي هَوَى الشَّيْبِ بِهَا وَوَلَّى بِهَا عَنِّي
فَإِنْ أَبْكَ نَفْسِي أَبْكَ نَفْساً نَفِيسَةً وَإِنْ أَخْتَسِبُهَا أَخْتَسِبُهَا عَلَى ضَرٍّ
ففي هذا البيت يصف الشاعر الدنيا الشمطاء، وهي على شبيبها لا تقبل بشيبه، وعلى قبحها تنفر منه.

وكان الشاعر المعاصر إبراهيم الأسود من أشد من أكثر من هجاء الدنيا والزمان، ودرج في تشبيهاته البليغة على أن يأتي بالمشبه معنوياً والمشبه به محسوساً، وقد شبه الدنيا بالعجوز الشمطاء في قصيدته المطولة (مرثية حي) فهو يصور الدنيا الغدّارة الكاذبة التي تنزيًا بالخداع وتنزين بالغش لابن آدم، فلا يحلم الإنسان المسكين منها بأكثر من السراب الذي يقضي عمره يلاحقه ولا يبلغه مطلباً، ولا يُبعد منالاً، مقتبساً الصورة القديمة المتجددة، فيقول {من الخفيف} (51):

إِنَّ دُنْيَاكَ هَذِهِ يَا أَخَا الْحَا — عَجُوزٌ لَكِنَّهَا تَتَصَابِي
هِيَ أَنْثَى فَلَيْسَ يَحْطَى بِصَدَقِ الْ — وَعْدِ مِنْهَا مَنْ لَمْ يَكُنْ كَذَّابَا
وَهِيَ كَالزَّوْجَةِ الْفَرُوكِ تُدَاجِي — كَ فَإِنْ غَبَّتْ تَمْتَمْتُ : لَا أَبَا
خَذْ زَكَاةً لِلْعَامِلِينَ عَلَيْهَا — مِنْ هُمُومِي فَقَدْ بَلَغَنَ الرِّصَابَا

فقد شبه الشاعر الدنيا في هذه الأبيات بأنها "عجوز" تتجدد في عيون كل مولود وناشئ، فتتظاهر له صببية فاتنة، وما هي إلا أيام حتى تعيد نفسها، وقد حذف الشاعر هنا أداة التشبيه، بينما كان وجه الشبه القدام، حيث أن الدهر قديم والدنيا على ما هي عليه منذ خلق الله آدم، ولكن كل امرئ يؤرخها بعمره وحياته، ففي أيام سعيه وشبابه وغناه يرى الدنيا جميلة فاتنة براقعة، وذلك وهم خادع فما هي إلا كالعجوز التي شددت حدودها لتزيل أثر الكبر، ونفخت مواضع الأنوثة منها بالزيف، فكانت كما قال الأعرابي الذي خطب شابة طرية فدرسوا إليه عجوزاً {من الطويل} (52):

عَجُوزٌ تُرَجِّي أَنْ تَكُونَ فَتِيَّةً — وَقَدْ نَحَلَ الْجَنَابِ وَاحِدُودَ الْظَهْرِ
تَزْفُ إِلَى الْعِطَارِ سِلْعَةً بَيْتَهَا — وَهَلْ يُصْلِحُ الْعِطَارُ مَا أَفْسَدَ الدَّهْرُ
فالجميل الذي نراه منها رآه قبلنا هامان وقارون والنمرود والتبع وظنوا أنهم وصلوا، ولكن غرهم الدنيا الفتانة بمظاهرها ثم عادت لتغرنا نحن بنفس ما غرهم. وزاد الشاعر في البيت الثاني تشبيهها بليغا آخر لا يتبعد كثيراً عن هذا التشبيه إذ رأى أن الدنيا "أنثى" بالمطلق، ولكن وجه الشبه الذي أراده هنا أن كيدها عظيم ككيد بنات حواء، فلا ينفع معها المكايدة بالمثل، وهذا ما يترتب على التشبيه الذي أتى به الشاعر ولا يصح أن يكون وجه شبه، فلا يُحصَلُ الحقوق من دنياه من لم يكن مثلها كذاباً أشرّاً مكاراً يستطيع أن ينال مراده في هذا الزمان، وليس للصديقين إلا ملء أفواههم تراباً. كان التشبيهان البليغان اللذين أتى بهما الشاعر بطرفين أحدهما معنوي هو الدنيا والثاني حسي، كالعجوز في التشبيه الأول والأنثى في التشبيه الثاني، ومن عادة التشبيه البليغ أن يكون المشبه به حسيّاً ملموساً لتجلية الصورة في ذهن السامع.

6. تشبيه الدنيا المرأة بالزوجة الفارك:

وقد زاد الشاعر الأسود على تشبيهاته للدنيا بالمرأة تشبيهاً آخر، فبعد أن شبهها عُمرياً بالعجوز، شبهها بالأنثى مطلقاً، ثم عاد في البيت الذي يليه بتشبيهها — "الزوجة"، ولكنها تلك

الزوجة اللعوب الغدرة التي لا يؤمن جانبها، الزوجة التي تتزين لزوجها وتساهره طوال الليل وتسليه، حتى إذا طلع عليهم الصباح وأدار ظهره أتبعته بتمتمات سرها بكل ما يستجلب عليه الويل والثبور والهلاك، داعية ألا يعود إلا محملاً على نعش. أثبت الشاعر هنا أداة التشبيه، وجاء بصورة الغدر التي تمثل وجه الشبه فجاء تشبيهه تمثيلاً مفصلاً مشتملاً على كل أركان التشبيه.

والتشبيه التمثيلي هو ما كان وجه الشبه فيه "وصف منتزع من متعدد أمرين أو أمور" (53)، وهذا التشبيه يضج بما يمكن أن يهيج نفس السامع ويجذب انتباهه، ويزيد من ظرافة المعنى، فهو يجمع بين بعيدين، ويخرج المعنوي إلى تشبيه محسوس، وهو ما اكتملت أركانه في البيت الثالث من المقطع أعلاه.

وقد أحسن الشاعر إبراهيم الأسود توظيف التشبيه التمثيلي، حيث جاء به سلساً على أحسن ما يمكن أن يأتي به شاعر، أول كلمة فيه تفضي إلى آخر الصورة.

وكان الشاعر العرجي قد اجتزئ طرفاً من هذا المعنى حين شبه الدنيا بالصاحبة التي تعطي زوجها من طرفها اللسان حلاوة، وتروغ منه كما يروغ الثعلب، فما حظها منها إلا من ينال طرف البنان من الحناء، يقول من {من الوافر} (54):

وَلَا بُعْدِي يُعَيِّرُ حَالَ وَدِّي عَنِ الْعَهْدِ الْكَرِيمِ وَلَا اغْتِرَابِي
وَلَا عِنْدَ الرَّحَاءِ أَطُوفُ يَوْمًا وَلَا فِي فَاقَةِ دَنْسٍ ثِيَابِي
وَلَا يَغْدُو عَلَى الْجَارِ يَشْكُو أَذَاتِي مَا بَقِيَتْ وَلَا اغْتِيَابِي
وَمَا الدُّنْيَا لِصَاحِبِهَا بِحَظٍّ سِوَى حَظِّ الْبَنَانِ مِنَ الْخِصَابِ

وتشبيه الدنيا بالزوجة قديم، أما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه، مخاطباً الدنيا: "يا دنيا يا دنيا أبي تعرضت، أم إلي تشوقت، لا حان حينك، هيهات! غري غيري، لا حاجة لي فيك، قد طلقتك ثلاثاً، لا رجعة لي فيك" (55) وقال {من مجزوء الرمل} (56):

طَلَّقِ الدُّنْيَا ثَلَاثًا وَاتَّخَذْ زَوْجًا سَوَاهَا
إِنَّهَا زَوْجَةٌ سَوَاءٌ لَا تُبَالِي مِنْ أَتَاهَا

أما المعري، فقد صب نقمته على الدنيا صباً، وعاش فيلسوفاً منعزلاً لا يخالط أهلها، أليس هو من أوصى أن يكتب على قبره حقاً على الدنيا وبنيتها {من مجزوء الكامل} (57):

هَذَا جَنَاهُ أَبِي عَلَيَّ وَمَا جَنِيْتُ عَلَى أَحَدٍ

يقول في قصيدة أخرى له مخاطباً الدنيا بكينيتها (أُمُّ دِفْر) نافياً أن تكون عِرسهُ أي زوجته، معللاً تعلقه بها أن الدنيا أُمُّ ولا يستطيع المرء فكاكاً عن أُمِّه، {من البسيط} (58):

مَا كَانَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا بَنُو زَمَنٍ	إِلَّا وَعِنْدِي مِنْ أَخْبَارِهِمْ طَرَفُ
يُخَيِّرُ الْعَقْلُ أَنَّ الْقَوْمَ مَا كَرُمُوا	وَلَا أَفَادُوا وَلَا طَابُوا وَلَا عَزَفُوا
عَاشُوا قَلِيلاً وَمَا جَوَّ فِي ضَلَالَتِهِمْ	وَلَا يَفُوزُونَ إِنْ جُوزُوا بِمَا اقْتَرَفُوا
إِذَا شَقِيتَ فَجِسْمٌ نَالَهُ نَصَبٌ	وَإِنْ تُرِفْتَ فَمَاذَا يَنْفَعُ التَّرَفُ
يَا أُمُّ دَفْرٍ لِحَاكِ اللَّهِ وَالِدَّةُ	مِنْكَ الْإِضَاعَةُ وَالتَّفْرِيطُ وَالسَّرَفُ
لَوْ أَنَّكَ الْعِرْسُ أَوْقَعْتَ الطَّلَاقَ بِهَا	لَكِنَّكَ الْأُمُّ هَلْ لِي عَنْكَ مُنْصَرَفُ
وَلَنْ يُصِيبَ خُفَاقاً مَنْ يُقَايِضُهُ	يَوْمًا بِنُدْبَةٍ لَمَّا فَاتَهَا الشَّرَفُ

ولعل لأبي العلاء خصوصية في هذا المضمار، فإن أبرز أسباب سخطه على الدنيا فهناك أمور تعود لطبيعية التكوين النفسي لأبي العلاء نفسه ونقمته على الطبيعة التي جبل عليها البشر، وقد أشار طه حسين إلى هذا الأمر عندما قام بإجراء مقابلة متخيلة مع أبي العلاء، فقال: "وكنت أحدث أبا العلاء بأن تشاؤمه لا مصدر له، إلا العجز عن ذوق الحياة والقصور عن الشعور لما يمكن أن يكون فيها من جمال وبهجة ومن نعيم ولذة" (59). ولذا نجد هذا المعنى في ديوان اللزوميات لأبي العلاء، مفعماً بهذا المعنى، وبنفس الخطاب، حيث يفصل في حيل هذه الخليفة الغدرة، التي تطعمه العلقم المر على أنه عسل مصفى، وتتركه أرقاً لا يستطيع إغماضاً، حتى أركبت زوجها بدل فرسه نعشاً، فيقول المعري {من الطويل} (60):

وَلَمْ تَفْتَأِ الدُّنْيَا تَغَرُّ خَلِيلَهَا	وَتُبْدِلُهُ مِنْ غَمَضِ أَجْفَانِهِ سُهْداً
تَرِيهِ الدُّجَى فِي هَيْئَةِ النُّورِ خُدْعَةً	وَتَطْمَعُهُ صَاباً فَيَحْسِبُهُ شَهْداً
وَقَدْ حَمَلْتُهُ فَوْقَ نَعَشٍ، وَطَالَمَا	سَرَى فَوْقَ عَنَسٍ، أَوْعَلَا فَرَساً نَهْداً
كَأَنَّ ابْنَ حَوَاءِ الدَّفِينِ ابْنَ وَقْتِهِ	أَجَادَتْ لَهُ فِي حِجْرِ كَافِلَةٍ مَهْداً
وَقَدْ صَيَّرَتْ مِثْلَ مِثْوَاهُ لِحَدِّ قَرَارَةٍ	وَصَحَّتْهُ سُقْمًا وَرَغْبَتَهُ زُهْداً
وَلَمْ تَتْرَكَ مِنْ حِيلَةٍ لَتَغَرُّهُ	وَلَمْ يُبْقِ فِي إِخْلَاصِهِ حَبَّهَا جَهْداً

وهكذا فإن أبا خليل الأسود، أفاد من تقدمه من الشعراء بهذه الصور ثم نحت منها تشبيهاته وتركيباته التمثيلية التي اختص بها دوحهم، وتميز برقي لغته وإحكام صنعتته فصار مدرسة في ذم الدنيا والتزهيد فيها.

خاتمة:

وفي الختام ، وبعد دراسة التشبيهات المختلفة للدنيا بالمرأة بشتى أحوالها العمرية عند أبي خليل، وعرضها على ما قاله الشاعر العربي من العصر القديم إلى العصر الحاضر، تم التوصل في هذه الورقة البحثية إلى عدة نتائج أبرزها:

- 1- أن إبراهيم الأسود تأثر بالشاعر العربي الذي وجد في جمال الدنيا وفتنتها نظيراً لجمال المرأة وفتنتها.
- 2- لم يجد الأسود لمكر الدنيا نظير، إلا مكر المرأة وكيدها، وحذا حذو من سبقه من الشعراء في هذا المنحى.
- 3- وجد أبو خليل في تقلب مزاج المرأة نظيراً ملائماً في تقلب أحوال الدنيا.
- 4- شبه الشاعر الدنيا بالحسنة الفاتنة، وشبه أحداثها المفجعة بالمفاجآت، بالحبلى التي ليس يُدرى ما تلد، وشبه تمهات الناس وتكالبهم على الدنيا كتهافت الرضيع على ثدي المرضع. كما وجد في تزين الدنيا وتزخرفها في عين الطالبين مثلاً حياً من الحبيبة والخطيبة التي تتزين لفارسها. وعندما هرم الشاعر نظر إلى الدنيا بعين عجوز شمطاء تصبغ شعرها لتداري عيوبها.. كما شبهها بالزوجة الفروك الغدارة، التي تعد وتمي العاشقين، ثم تخلف وعدها.
- 5- لاتزال الدنيا والمرأة، مصدر إلهام الشعراء منذ بدأ الشعر وسيظل الأمر كذلك على الدوام. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الهوامش

- (¹) إبراهيم عبد الحميد الأسود: (أبو خليل) شاعر من مواليد بلدة هجين في دير الزور السورية (1952)، له عشرة دواوين مطبوعة منها (قصائد مسيلة للدموع)، (بالنار على جسد ميت)، (شواظ الروح)، (نشيد الواله في حب النبي وآله)، (هراء)، (شواخص) ، ودواوين مطبوعة أخرى كما أنه له عدد من الدواوين غير المطبوعة، وروايات أدبية منشورة.
- (2) ديوان شواخص، إبراهيم الأسود، مخطوط حصلت عليه من الشاعر، والشاخصة منشورة في تغريدة على موقع X https://twitter.com/i_alaswad/status/1175675451592859648
- (3) ديوان شواخص (مخطوط)، تغريدة للشاعر على (X) تويتر : https://twitter.com/i_alaswad/status/510756981733216257
- (4) ديوان شواخص (مخطوط)، تغريدة للشاعر على (X) تويتر https://twitter.com/i_alaswad/status/1015987917553061891
- (⁵) ديوان شواخص (مخطوط).
- (⁶) سورة الكهف، الآية 45.

- (7) رواه الترمذي وَقَالَ: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ، 2377.
- (8) الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، دار الجيل، بيروت، ط3 (1431هـ)، ص 122.
- (9) جواهر البلاغة، السيد أحمد الهاشمي، ضبط يوسف الصميلي، مؤسسة المعارف بيروت (1999) ص 219.
- (10) ديوان المتنبي، دار بيروت (1983)، ص 407.
- (11) علم البيان (دراسة تحليلية لمسائل البيان)، د. بسيوني عبد الفتاح فيود، ط2، مؤسسة المختارة، القاهرة - مصر (1998)، ص 22.
- (12) المحب والمحبوب والمشموم والمشروب، السري الرفاء، ص 83.
- (13) ديوان امرئ القيس، تحقيق عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت (2004)، ص 159.
- (14) إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، دار السلام (2003)، 1108/2.
- (15) شواخص، تغريدة للشاعر على تويتر.
https://twitter.com/i_alaswad/status/1177090784811716608
- (16) أبوخليل: كنية الشاعر إبراهيم الأسود.
- (17) قصيدة رودي، للشاعر إبراهيم الأسود، من ديوان مخطوط، منشور على الصفحة الرسمية للشاعر.
- (18) روى الشاعر ذلك في تقديم القصيدة على صفحته الشخصية.
- (19) قصيدة أم وجدي، إبراهيم الأسود، منشورة على الصفحة الرسمية للشاعر من ديوان مخطوط،
<https://www.facebook.com/100001299920374/posts/4823665071020109/?mibextid=I6gGtw>
- (20) انظر: لسان العرب، مادة (وجد) فصل الواو، 445/3.
- (21) المحاسن والأضداد، الجاحظ، دار الهلال، بيروت (1423هـ) ص 164.
- (22) مرزبان نامه، اسبهد مرزبان، ترجمه للعربية: شهاب الدين بن عرب شاه. الانتشار العربي، بيروت (1997)، ص 91.
- (23) الأوراق قسم أخبار الشعراء، أبو بكر الصولي، شركة أمل، القاهرة (1425هـ) 122/1.
- (24) العقد الفريد، ابن عبد ربه، تحقيق د. عبد المجيد الترحيني، دار الكتب العلمية، بيروت (1983) 335/1.
- (25) شواخص، إبراهيم الأسود، المقطع منشور على الصفحة الشخصية للشاعر على موقع تويتر.
- (26) قصيدة رودي، للشاعر إبراهيم الأسود، منشورة على الصفحة الرسمية للشاعر من ديوان مخطوط،
<https://www.facebook.com/share/SMQMNPqGkBsQSiNw/?mibextid=I6gGtw>
- (27) الغفار: الخمر. انظر: لسان العرب، 598/4.
- (28) شواظ الروح، إبراهيم الأسود، مؤسسة الفرقان، تركيا (2020)، ص 24.
- (29) أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم، أبو بكر الصولي، مطبعة الصاوي، القاهرة (1936) ص 22.

- (30) ألف ليلة وليلة، دار القلم، بيروت، 3/ 204
- (31) المحاضرات في اللغة والأدب، اليوسي، ص 1.
- (32) قصيدة المطرش المعمي، إبراهيم الأسود، منشورة على الصفحة الرسمية للشاعر من ديوان مخطوط.
<https://www.facebook.com/share/EUMwCUANqDJuPwFd/?mibextid=I6gGtw>
- (33) الإبل، الأصمعي، تحقيق حاتم الضامن، دار البشائر، دمشق (2003) ص 71.
- (34) وصايا الملوك، دعبل الخزاعي، دار صادر، بيروت (1967)، ص 41.
- (35) الزهد لابن أبي الدنيا، دار ابن كثير، دمشق (1999)، ص 80.
- (36) الوحشيات، الأصمعي، ص 91.
- (37) مري الناقة: مسح ضرعها لتدر، انظر القاموس المحيط، 1334.
- (38) الأوراق قسم أخبار الشعراء، 170/1.
- (39) قصائد مسيلة للدموع، إبراهيم الأسود، دار آفاق، الكويت (2016)، ص 89.
- (40) العلباء: عصب في العنق، انظر: لسان العرب، 623/1.
- (41) شواخص، تغريدة للشاعر على موقع تويتر
https://twitter.com/i_alaswad/status/216609110613962752
- (42) العقد الفريد، 298/7.
- (43) اشتملت: من اشتملت الدابة أي نشطت ومرحت، القاموس المحيط، ص 1021.
- (44) البرصان والعرجان والعميان والحولان، الجاحظ، دار الجيل بيروت، (1410هـ) ص 373.
- (45) البيان والتبيين، الجاحظ، دار الهلال، بيروت (1423هـ)، 3/ 124.
- (46) العقد الفريد، لابن عبد ربه، 4/ 15.
- (47) العقد الفريد، 5/ 240.
- (48) هتماء: مؤنث أهتم، من تكسر مقدم أسنانه، القاموس المحيط، 1186.
- (49) مختصر منهاج القاصدين، ابن قدامة المقدسي، المكتب الإسلامي (1974)، ص 203.
- (50) أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم، أبو بكر الصولي، مطبعة الصاوي، القاهرة (1936) ص 22.
- (51) بالنار على جسد ميت، إبراهيم الأسود، دار آفاق، الكويت (2017) ص 103.
- (52) العقد الفريد، 4/ 46.
- (53) الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، ص 190.
- (54) الوحشيات، ص 177.
- (55) الكشكول، إبراهيم الزنجاني، مؤسسة العالم للمطبوعات (1971) ص 251.
- (56) تاريخ الرسل والملوك، ابن جرير الطبري، ص 871.

- (57) رسائل أبي العلاء المعري، أبو العلاء المعري، تحقيق ديفيد صموئيل، أكسفورد (1898)، ص 133.
- (58) اللزوميات، أبو العلاء المعري، مركز تحقيق التراث، الهيئة المصرية العامة للتراث، القاهرة، 3/ 385.
- (59) المجموعة الكاملة لمؤلفات الدكتور طه حسين، دار الكتاب اللبناني (1973)، ص 325.
- (60) اللزوميات، 441/1-442.

المراجع:

1. الإبل، الأصمعي، تحقيق حاتم الضامن، دار البشائر، دمشق (2003).
2. إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، دار السلام (2003).
3. أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم، أبو بكر الصولي، مطبعة الصاوي، القاهرة (1936).
4. الأوراق قسم أخبار الشعراء، أبو بكر الصولي، شركة أمل، القاهرة (1425هـ).
5. الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، دار الجيل، بيروت، ط 3 (1431هـ).
6. البرصان والعرجان والعميان والحولان، الجاحظ، دار الجيل بيروت، (1410هـ).
7. البيان والتبيين، الجاحظ، دار الهلال، بيروت (1423هـ).
8. تاريخ الرسل والملوك، ابن جرير الطبري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط 2 (1967م).
9. ديوان امرئ القيس، تحقيق عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت (2004).
10. ديوان بالنار على جسد ميت، إبراهيم الأسود، دار آفاق، الكويت (2017).
11. ديوان شواخص، إبراهيم الأسود، (مخطوط).
12. رسائل أبي العلاء المعري، أبو العلاء المعري، تحقيق ديفيد صموئيل، أكسفورد (1898)،
13. الزهد لابن أبي الدنيا، دار ابن كثير، دمشق (1999).
14. شواظ الروح، إبراهيم الأسود، مؤسسة الفرقان، تركيا (2020).
15. العقد الفريد، ابن عبد ربه، تحقيق د. عبد المجيد الترحيني، دار الكتب العلمية، بيروت (1983).
16. الكشكول للعالمي، تحقيق إبراهيم الزنجاني، مؤسسة العالم للمطبوعات (1971).
17. اللزوميات، أبو العلاء المعري، مركز تحقيق التراث، الهيئة المصرية العامة للتراث، القاهرة، ب.ت.
18. المجموعة الكاملة لمؤلفات الدكتور طه حسين، دار الكتاب اللبناني (1973).
19. المحاسن والأضداد، الجاحظ، دار الهلال، بيروت (1423هـ).
20. وصايا الملوك، دعبل الخزاعي، تحقيق: نزار أباطة، دار صادر، بيروت (1997).